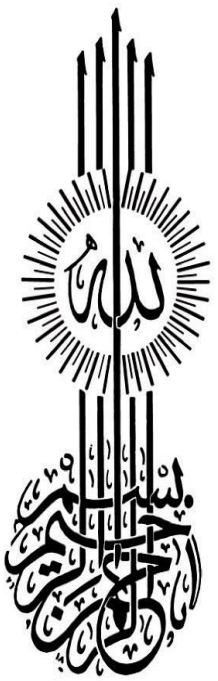

فاتحة كل خير وتمام كل نعمة

إهداء

إلى كل الذين غمروني بحبهم منذ كنت صغيرا..

إلى آبائي، وأمهاتي،

ومشايخي، وشيخاتي،

وأصدقائي،

وتلاميذي، وتلميذاتي،

وأبنائي الروحيين، وأبنائي الحقيقيين،

وأحبائي.

إليهم جميعًا إذ لم أكن لو لم يكونوا!

خالد

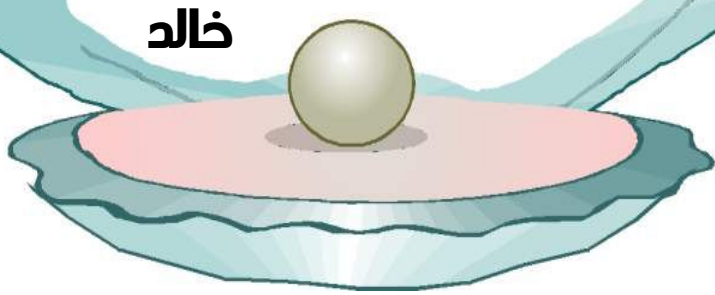

المقدمة

اللّٰهم إني "أسألك بأصح سر، وأكرم لفظ، وأفصح لغة، وأتم إخلاص، وأشرف نية، وأفضل طوية، وأظهر عقيدة، وأثبت يقين، أن تصد عني كل ما يصد عنك، وتصلني بكل ما يصل بك، وتحبب إليّ ما حبب إليك.. لا إله إلا أنت" [من دعاء أبي حيان التوحيدي في البصائر والذخائر ٦/٣].

وبعد..

فهذا كتاب جديد في مسعاه الذي يريد أن يثبته في الدرس المعجمي العربي، كشفًا عن مسارات بقيت مهملة زمانا طويلا، وتأريخا لما نتصوره حلقات ظلت غائبة غير معتنى بها، وتصنيفا يستوعب بيان الوظائف والمقاصد التي حكمت خدمتها.

إن هذا الكتاب يريد أن ينطق بحق ظل مطْمورا في السطور، يتردد أثره في الصدور، شعورا به، وإحساسا بقيمته، وهو أن التصور الإسلامي للحياة والوجود كان فاعلا في البحث المعجمي في العربية على امتداد تاريخها الطويل، على مستوى المعجمية العامة والمختصة معا.

إن المعجم، ربما صح أن يكون معادلا للعالم في الثقافة العربية الإسلامية، وهي الحقيقة التي يمكن تلمس الأدلة عليها من جوانب كثيرة، يمكن أن نوجزها في ما يلي:

أولا- غياب المعجمية العربية بإطلاق في الجاهلية، وهي المرحلة التاريخية السابقة لنزول القرآن الكريم.

ثانيا- ارتباط المعجمية العربية في الوجود والنشأة بالكتاب العزيز؛ إذ كانت معجمات غريبه أسبق الأنواع جميعا في الميلاد.

ثالثا- تعانق تطور المعجمية العربية بتطور حركة العلم في المجتمعات العربية الإسلامية، فعلى حين افتتح النشاط المعجمي وجوده بمعجمات الغريب القرآني، تأخر

جود معجمات المصطلحات العلمية في الخطاب العلمي العربي الإسلامي إلى ما بعد استقرار المجتمع بعد نحو ثلاثة قرون كاملة، أو يزيد من نزول القرآن الكريم؛ أي أن الدخول في خدمة المعجمية العربية لم يكن إلا بعد جمع الكتاب العزيز، وجمع السنة وتدوينها، وتأسيس المدارس العلمية (أو المذاهب الفقهية).. إلخ.

رابعا- انعكاس الخصائص العامة للإسلام على مجمل النشاط المعجمي في تاريخ هذا العلم عند العرب، وهو ما يعني ظهور مجموعة من العلامات حكمت مسيرة البحث المعجمي في العربية من مثل:

١- هيمنة الروح التيسيرية على المستعملين، وهي الهيمنة التي تجلت في التنوع المنهجي، والانفجار التصنيفي، وتمدده الزماني والمكاني.. إلخ.

٢- شيوع الروح الاستيعابية لجوانب الوجود والحياة، وهو أثر من رعاية التصور الإسلامي للشمول المادي والروحي معا، وللأرضي والسمواي أيضا، وللإنساني وغير الإنساني كذلك.

٣- ظهور ارتباط المنجز المعجمي العربي بنوع تفكير مقاصدي، يرعى مجموعة مهمة من المقاصد العليا والعامة في الفكر الإسلامي، حفظا للدين وخدمة له، وتيسير على الإنسان المستعمل، وتطويرا لما تراكم من مفردات هذا المنجز، وإحكامه وتخليصه مما علق به من عيوب النقص والاضطراب.. إلخ.

إن هذا الكتاب يحاول أن يكشف عن وجه طالما اختفي وراء ثورات العناية بتيار واحدٍ تقريبا، من مجمل المنجز المعجمي العربي في الدرس المعجمي العربي المعاصر، ويفتح الباب أمام حقيقة تستعلن بعنف، وهي أن ما ينتظر الدرس المعجمي العربي تأريخا وتصنيفا وكشفا عن حدود منجزه من جهد ما زال أمامه طريق طويلة جدًّا.

ومن أجل ذلك وغيره رأي هذا الكتاب أن يقف أمام مجموعة من القضايا المعجمية العربية الإسلامية؛ ليدلل على صدق دعواه التي أطلقها.

ويعالج هذا الكتاب ما انتدب نفسه إليه من خلال ما يلي:

التمهيد- وعنوانه: المعجم: مفهومه وأجواء الميلاد الأول.

الباب الأول- المعجمية العربية في إطار الوحي (التلاوة/ والفهم/ والاستنباط).

وفي هذا الباب وقف هذا الكتاب أمام تأثير الوحي في أصليه العظيمين (القرآن الكريم، والسنة المشرفة) في ظهور نشاط معجمي يستهدف معالجة قضايا الوحي، إن على مستوى منهجية التعامل معه؛ بما يعين على فهمه وتفعيله في الوجود الحي، وإن على مستوى ما يستخرجه العقل منه، ويريده الله تعالى أن يستقر في الحياة.

وقد ضم هذا الباب الفصول التالية:

الفصل الأول- في معجمية الوحي (التلاوة).

١- معاجم التجويد.

٢- معاجم القراءات.

الفصل الثاني- في معجمية الوحي (الفهم).

١- معاجم مصطلحات الحديث.

٢- معاجم الجرح والتعديل.

٣- معاجم الغريبين.

الفصل الثالث- في معجمية الوحي (الاستنباط).

١- معاجم العقيدة.

٢- معاجم الفقه.

الباب الثاني- المعجمية العربية في إطار الحضارة.

وفي هذا الباب وقف هذا الكتاب أمام تأثير الروح الحضارية التي أفرزها الإسلام على أرض الواقع في ظهور نشاط معجمي يتعاطى معها، ويخدمها، ويستجيب لتجلياتها المنهجية والمادية معا.

وقد ضم هذا الباب الفصول التالية:

الفصل الأول- في معجمية الحضارة (الأصول).

١- معاجم علم المخطوط (العلم في هدف وعاء الحضارة).

٢- معاجم مصطلحات البحث والتأليف (استثمار ما في الوعاء).

٣- معاجم مصطلحات الوثائق والأرشيف.

الفصل الثاني- في معجمية الحضارة (التطبيقات).

١- معاجم ألفاظ الحضارة.

٢- معاجم مصطلحات الاقتصاد الإسلامي.

٣- معاجم المصطلحات العسكرية.

الفصل الثالث- في معجمية الحضارة (الأثر).

١- أثر البلاغة في تطوير المعجمية العربية: خطاب التصنيف والوظائف.

٢- السفينة في المعجمية العربية: قراءة في آفاق القدرة والمرونة اللغوية.

لقد حاول هذا الكتاب مجتهدا أن يكشف عن بعض ملامح النور في النشاط المعجمي المنبثق من شمس التصور الإسلامي، واجتهد في أن يترجم عن بعض ما تردد في نفس صاحبه من شعور حقيقي بقيمة هذا المنجز في إطاره الفكري. وكل رجائه أن يكون أحرز بعض التوفيق.

والله تعالى يقول الحق، وهو أرحم الراحمين.

خالد فهمي

التمهيد

المعجم العربي: المفهوم وأجواء الميلاد الأولى

أولا

المعجم

(المصطلح والمفهوم)

طريق طويلة تلك التي سلكها هذا اللفظ؛ لفظ المعجم حتى صار عَلَمًا على علم في غاية الخطورة والأهمية؛ لدرجة أنه يحلو لي- ويحق- أن أسمي زماننا هذا زمن المعجم، مستندا في تسميتي هذه إلى عدد ضخم من المبررات، ليس هذا أوان طرحها ومناقشتها الآن.

ومخطئ من يظن أن الرحلة التي قطعها هذا اللفظ حتى صار مصطلحا، واستقر مفهومه ومعناه فيما يعرفه المتخصصون- اليوم- كانت خالية من أيّ عقبات، أو كانت ممهدة لم تعانِ في مسيرها مع طول المدة والوقت التي استغرقته، بل بالعكس هو الصحيح تماما؛ ذلك أن هذا المصطلح عانى كثيرا قبل استقراره مصطلحا، عانى من مجموعة "أمور، لعل من أهمها، ذلك الغموض الذي أحاط بدلالته، وبنشأته ووجوده، وخروجه إلى حيز الاستخدام العلمي، كما أننا لم نعرف حتى الآن على وجه التحديد توقيت استخدامه في التراث العلمي للعرب، على الرغم من تفوقهم الظاهر في هذا الميدان. كما أن ثمة غموضا يحيط بحقيقة أن أحدا من اللغويين العرب والمعجميين منهم على وجه التحديد، ومع كثرتهم- لم يفرد له بحثا تنظيريا، يعرفه فيه، أو يعرض لمفهومه، ومن أي أصل جاء، وما هو هذا الأصل؟ وماذا كانت دلالته؟ وما العلاقة بينه وبين هذا الأصل الذي اشتق منه؟ ولماذا خلت كل المعاجم العربية من عنوان يتضمن ذلك اللفظ الذي هو: (المعجم)؟[1]

---

(١) لا أحب لك أن تنخدع بمجيء هذا اللفظ في المعاجم العربية، فهي تتعامل معه باعتباره (مصدرا) Verbal noun لا اسما noun، فضلا عن أن تكون قد عرفته باعتباره مصطلحا على ما نحن بصدده، يقول الفيروزآبادي في القاموس المحيط (عجم) ٤/١٤٥: "وحروف المعجم: أي الإعجام، مصدر، كالمُدخل؛ أي من شأنه أن يعجم"، والفيروزآبادي من أواخر من صنعوا معجما حيث توفي سنة ٨١٧هـ، ومن يستخدمه اسما يستخدمه Attribute صفة لموصوف محذوف من قولهم: "حروف الخط المُعجم"،=

هذه نماذج من السؤالات التي يمكن أن تجابهك عندما تفكر أو تحاول أن تفكر في المسيرة التاريخية والدلالية التي قطعها هذا اللفظ (المعجم)، حتى استقر مصطلحا ومفهوما عند أصحاب الدراسات اللغوية والمعجمية والدلالية.

وأحب أن أقف بك قليلا هنا وفي مفتتح هذه الدراسة، أمام هذه الكلمة، لأحسم معك مادة الخلاف التي يمكن أن تثور حولها، أو أحاول أن أقترب بك نحو مساحة ممكنة من الالتقاء في منطقة وسطى، لنقرب مسافة الخلاف، ونقلل من أي شيء يمكن أن يمثل فجوة في هذا الموضوع. وتستمد هذه الوقفة أهميتها من باب أن مصطلح المعجم هو بطبيعة الحال المصطلح المحور هنا، وفي أية دراسة تتخذ لنفسها عنوان المدخل أو المقدمة لدراسته، وأنه واحد من تلك الكلمات المفاتيح التي ترسم مبادئ هذا العلم، وهو علم المعجم، وتحدد أبعاد عمود الصورة المكوّنة لما يمكن أن تسميه: نظرية المعجم.

في أحدث تعريف لمصطلح المعجم عند الغرب على شبكة المعلومات الدولية (إنترنت Internet) ورد ما يلي:

Dictionary, alphabetical compilation of the words of language, giving their meanings, spelling, etymology, pronunciation, and syllabication[1].

وتقول ترجمة هذا النص: "المعجم: ديوان أو مصنَّف هجائي للألفاظ في لغة ما؛ لبيان معانيها وهجائها واشتقاقها، وضبطها (أو طريقة النطق بها) ومقاطعها الصوتية".

ويقول معجم وبستر الدولي تحت مدخل (Dictionary المعجم): "هو كتاب يحتوي على مجموعة من المفردات اللغوية مرتبة ترتيبا هجائيا، ويعطي بيانات عن معانيها وهجائها ونطقها واشتقاقاتها وصرفها"، وهو تعريف لا يختلف في كثير أو قليل عما جاء وسجل على شبكة المعلومات الدولية، وهو صريح في القول بأن الغرب لم يعرف سوى

= فصارت: حروف المعجم. وانظر: الصحاح (عجم) ٥/ ١٩٨٠، وانظر المناقشة الممتعة حول هذا في المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده (عجم) ١/ ٢١٠.

(١) انظر: Encrota R 98 Desk Encyclopeda

الترتيب الهجائي، على غير ما هو عندنا نحن العرب، الذين تنوعت مناهج التأليف المعجمي عندهم، على نحو غزير ومتعدد الجوانب.

وبغض النظر عن كلمة (هجائي alphabetical) التي وردت في النصين، نص (الإنترنت) ونص وبستر، وبغض النظر عن عدم رضائنا عن هذه التعريفات التي مرت بك ونقلتها لك مما سوف يتضح بعد قليل؛ فإننا إذا نظرنا إلى مصطلح المعجم \Lexicon Dictionary، فإننا "لا ندري على وجه التحديد، متى استخدم للدلالة التي نتعارف عليها اليوم باعتباره: ديوانا لمجموعة من الألفاظ أو الكلمات المشروحة (أو المفسّرة والمعرّفة بالمعنى المنطقي لمصطلح المعرفة)، والمستشهد عليها (بما يدل على صحة هذا التفسير أو الشرح أو الاستخدام) والمرتبة وفق منهج خاص"[1]. والمحتوي على عدد من المعلومات اللازمة لهذه الكلمات والدائرة في فلكها والمسهمة في تكميل دائرة دلالاتها ومعناها.

لقد مرت الكلمة (المعجم) باستخدامات كثيرة متعددة، (وفي مجالات معرفية متنوعة)، حتى استقرت دلالتها لتكون ذلك الكتاب الذي يجمع بين دفتيه ألفاظ اللغة (أيَّ لغة؛ عامة أو خاصة)، هادفا إلى شرحها، وتفسيرها، وبيان معناها، والاستشهاد على صحة ما يورده من معان لها. وأحسب أن تسمية هذه الكتب التي تعنى بيان دلالات الألفاظ- بالمعجم- جاء من إحدى دلالات الفعل (أعجم)، وهي معنى: إزالة الاستعجام، سواء كان هذا الاستعجام نقطا؛ لتمييز الحروف المتشابهة رسما بعضها من بعضها، أو ضبطا وشكلا؛ لبيان الكيفية الصحيحة في نطقها. يقول الخليل بن أحمد (١٧٥هـ) في كتابه العين وهو أول معجم يصل إلينا: "وتعجيم الكتاب: تنقيطه كي تستبين، ويصح"[2]. ويقول الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت٣٩٣هـ) صاحب الصحاح:

---

(١) تراث المعاجم الفقهية في العربية، دراسة لغوية للدكتور خالد فهمي، ص٥. وانظر:
Webster'□s Third new internatiomal Dic. P. 400.

(٢) العين (عجم)، ١/٢٣٨.

"والعجْم: النقط بالسواد؛ مثل الفاء عليه نقطتان، ويقال: أعجمت الحرف. والتعجيم مثله"[1].

ومن ثم يصبح المعجم بعد هذا البيان الاشتقاقي للأصل الذي انحدر منه هو: الكتاب الذي يعنى ويهتم بإزالة إبهام دلالات الألفاظ والكلمات، وتوضيح ما يحيط بدلالات هذه الكلمات أو تلك- من غموض في المعنى، وتصبح دلالة لفظ (المعجم) تطورا دلاليا من باب التطور بالانتقال، أو ما يسمى بالتوسيع الدلالي أو التعميم من معنى إزالة ما يحيط بالشكل والضبط والحروف من استعجام، إلى إزالة الإبهام والغموض الذي يحيط بالمعنى ويدور حول الدلالة والتصوّر.

وعن هذه الطريق التطورية لمعنى الأصل (أعجم) التي جاء منها المعجم- وُلد المعنى الذي حكم دلالة هذا اللفظ الذي صار مصطلحا وعلما على ما مر بك بيانه الآن.

أما عن تحديد الزمان أو التوقيت الذي تم فيه ميلاد هذا الاستخدام الذي انحصر فيه لفظ (المعجم) ليدل على مصطلح ذي مواصفات خاصة تدور حول هذه النوعية من الكتب أو الدواوين التي تقوم على جمع ألفاظ اللغة، وبيان معانيها ودلالاتها، وطريقة نطقها وبيان أصلها الاشتقاقي إلى غير ذلك من المعلومات اللازم إيرادها في المعاجم، ونحن بصدد بيان دلالة لفظ ما من الألفاظ- فإننا لا نستطيع الجزم به أو تحديده على وجه الضبط والدقة، فاللغويون والمعجميون منهم على وجه التحديد "وقد تفتقت بهم الحيل فوضعوا (المعاجم) وصنفوها لم يسبقوا بإطلاق اسم (معجم) على كتبهم اللغوية التي تعالج (وتتعاطى) تفسير الألفاظ والمفردات (والكلمات)، أو تحشدها في موضوعات وأبواب"[2].

وليس معنى عدم استخدام هذه الكلمة التي هي (المعجم) في عنوانات الكتب التي تجمع المفردات وتشرح معناها وتستشهد على صحة هذا المعنى أو ذاك- أن محتواها أو

---

(١) الصحاح (عجم)، ٥/١٩٨١.

(٢) المعاجم العربية، دراسة تحليلية، ص١١٦. وانظر: المعجم العربي، نشأته وتطوره، ١/١١. وتراث المعاجم الفقهية، دراسة لغوية، ص٦.

مضمونها أو معناها أو مفهومها لم يكن موجودا، كلا! فقد يولد الشيء، ويكثر وجوده واستخدامه من دون تسميته أصلا أو استخدامه مع تسميته باسم آخر، وهذا هو عين ما حدث. فقد وُلِد العين؛ وهو أول معجم عربي ظهر للوجود في تاريخ حركة التأليف المعجمي في الحضارة العربية الإسلامية، من دون عنونته بعنوان المعجم، وإنما سماه صاحبه: كتاب العين، ثم سميناه بعد ذلك في حركة هذا العلم وعرفْناه أنه أول معجم عربي في التاريخ العلمي العربي.

على أنه يجدر بنا أن نشير إلى شيء مهم، هو أنه على حين لم يستعمل المعجميون واللغويون هذه الكلمة أو هذا المصطلح في دراساتهم أو كتبهم اللغوية المصنفة تحت مفهوم المعاجم- فليس معنى هذا غيابها تماما من كل الحقول أو المجالات المعرفية الأخرى في المجال العلمي العربي.

ذلك أننا نرى المؤرخين، والمشتغلين بعلم الرجال؛ من المعنيين بمتابعة تاريخ المحدثين وتعديلهم وتجريحهم وتوثيقهم وتضعيفهم، وعلماء التراجم والطبقات قد سبقوا إلى استخدام هذا المصطلح في إطلاقه على كثير من عنوانات كتبهم التي وصلت إلينا، وتترجم أو تعرف الأعلام من المحدثين، وبيان أحوالهم ودرجات توثيقهم، حيث نرى أنه قد وضع: "أبو يعلى، أحمد بن علي بن المثنى (٢١٠- ٣٠٧هـ) كتابا سماه معجم الصحابة"، وهذا تاريخ مبكر جدا يدلك على سرعة استجابة الواقع العلمي، ونهوضه متأثرا بنزول القرآن الكريم، ويدلك من طرف آخر على سرعة تلبية احتياجات الواقع العلمي في كافة ميادينه، كما يدل على ترابط الحياة المسلمة القديمة، وأنه لا مجال لوجود جُزر متفرقة أو متباعدة بين المتخصصين في العلوم المختلفة، فنشأة المعاجم التاريخية، إن صح التعبير، أو معاجم الطبقات كان لزاما لخدمة علمي الجرح والتعديل، وبيان أمر انضباط الحكم على رجال التحديث من توثيق أو تضعيف أو تدليس إلى آخره، معنى هذا أن عيون المجالات المعرفية على المستوى الحضاري الإسلامي والعربي كانت مفتحة جميعا ترقب في شغف الاحتياجات العلمية وتسعى جاهدة إلى القيام على تلبيتها ورعايتها، وإخراجها إلى حيز الوجود خدمة لعلم من العلوم في هذا المحيط أو ذاك.

على أننا نحب أن نشير إلى أن كتاب أبي يعلى لم يكن الوحيد الذي حمل في عنوانه كلمة (معجم)- بل لدينا مجموعة ضخمة من هذه الكتب التاريخية التي تعنى بالترجمة لعدد من رجال الحديث- تحمل عنوان: (المعجم)، ربما كان أقدمها هما: المعجم الكبير، والمعجم الصغير، لأبي القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي المتوفى سنة ٣١٧هـ[١].

ومن هذه الكتب التي تحمل في عنواناتها لفظ المعجم ما يلي[٢]:

١- المعجم الكبير والأوسط في قراءات القرآن الكريم، للنقاش الموصلي، أبي بكر محمد بن الحسن المتوفى سنة ٣٥١هـ.

٢- المعجم الكبير والأوسط والصغير، لأبي القاسم، سليمان بن أحمد الطبراني المتوفى سنة ٣٦٠هـ.

٣- معجم الشيوخ، لأبي بكر، أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي المتوفى سنة ٣٧١هـ.

٤- معجم الشعراء، للمرزباني المتوفى سنة ٣٨٤هـ.

٥- معجم الصحابة، لابن لال الهمذاني المتوفى ٣٩٨هـ.

وغير ذلك كثير جدا حمل في عنوانه لفظ (المعجم).

ونظرة سريعة إلى هذه القائمة الصغيرة التي جئت لك بها هنا الآن ترينا دوران دلالة هذه الكلمة التي صارت فيما بعد مصطلحا، حول معنى القائمة التي تجمع عددا من الأسماء لأعلام الصحابة رضي الله عنهم، وشيوخ الرواية والحديث والشعراء، وغيرهم من الأعلام الذين ينتمون إلى مجالات معرفية مختلفة.

---

(١) انظر: المعاجم العربية، دراسة تحليلية، ص١١٦. والمعجم العربي، نشأته وتطوره، ١١/١. وتراث المعاجم الفقهية، دراسة لغوية، ص٦.

(٢) رصد حاجي خليفة في كشف الظنون ١٧٣٣/٢ وما بعدها- ما يزيد على خمسة وأربعين كتابا تبدأ عنواناتها بكلمة (معجم)، وانظر: الفهرست، ص٥٦.

ومن هنا على وجه التحديد، وفي هذا التوقيت أظن أنه ولد أول معنى على طريق إنتاج **مصطلح معجم**، هذا المعنى هو (القائمة List)، ضمت هذه القائمة أسماء أعلام لرجال أو بُلدان أو قراءات أو ما إلى ذلك. المهم أن هذا هو أول خيط يمكن أن نضع أيدينا عليه.

ومن ثم أصبح يسيرا ما دام معنى المعجم باعتباره قائمة قد وُلِد ووُجد وظهر للحياة، أن تضم هذه القائمة ألفاظا أو كلمات أو مفردات تحل محل ما كان موجودا من أسماء الأعلام والرجال سواء كانت هذه الأسماء لصحابة، أو رواة ومحدثين أو شعراء أو غيرهم. المهم أن التصور أصبح موجودا وممكنا، لأن المهم هو أن دلالة المعجم باعتباره قائمة قد تم ميلادها واستقرار حياتها.

وأسهم- مع المؤرخين- المهتمون بعلم الكتابة أو الهجاء والخط من العلماء العرب والمسلمين في السعي بهذه الكلمة نحو استقرار معناها ودورانه حول المعنى الاصطلاحي، من أمثال ابن درستويه في كتابه (كتاب الكِتاب)؛ أي الهجاء والكتابة وتقويم اليد، ومن أمثال البلوي في كتابه ألف باء[1].

اتضح لنا الآن، مما قدمناه- كيف تطورت دلالة كلمة (المعجم)، وانتقلت من الدلالة على معنى: إزالة إشكال أو غموض في ضبط بنية كلمة ما (في المعنى اللغوي الذي ورد في المعاجم العربية على اختلافها)، إلى معنى آخر قريب من هذا: هو إزالة الإبهام والغموض الذي يحيط بدلالة لفظ ما أو معناه أو تصوّره، في المعنى الاصطلاحي لكلمة (المعجم). ورحلة الانتقال الدلالي من **إزالة إبهام في الضبط** إلى **إزالة إبهام في المعنى والدلالة**- لها حينئذ ما يبررها ويسوّغها ويجعلها مقبولة غير مرفوضة أو معترض عليها على الأقل؛ ذلك أن **الغموض** الذي يحيط بضبط بنية من البنى (في شكل الحروف أو تشكيلها)- قريب من **الغموض** الذي يحيط بدلالة كلمة من الكلمات أو معناها.

كما أننا بينا، أن تفسير انتقال تسمية كتب الألفاظ اللغوية التي تشرح هذه الألفاظ أو تفسرها بالمعاجم، قد تم عن طريق اقتراض هذه التسمية أو نقلها من كتب مؤرخي

---

(١) انظر طريقة استخدامها لهذه اللفظة وما يوحي به هذا الاستخدام من معاني تقترب به من معنى المصطلح ولو تلميحا: كتاب الكتاب، ص٦٤، ٦٩. وألف باء ١/٣١٦.

المحدثين عن طريق التوسيع، ما دام معناها هناك يدور حول معنى (القائمة) التي تضم أسماء الرجال، فما المانع أن تكون أيضا (القائمة) التي تضم الألفاظ لتترجمها؛ أي لتشرحها وتفسرها وتبين معناها- أقول إن هذا التفسير له كذلك ما يبرّره ويسوّغه، ذلك أن معاجم المؤرخين وعلماء الطبقات والتراجم مهمومة بالترجمة لأعلام الحديث أو الصحابة أو الرواة أو الشعراء أو غيرهم. والترجمة لهم ما هي إلا نوع من إزالة الغموض والإبهام، لكنه في هذه الحالة يحيط بخصائصه أو صفاته أو مناقبه. المهم أن معاجم الترجمة، إن صح التعبير، تحاول شرح حال من تترجم لهم. وهل عساك تجد غير هذا المعنى في المعاجم اللغوية؟! أفليست معاجمنا اللغوية هي الأخرى- مهمومة ومشغولة بإزالة الغموض أو الإبهام الذي يكتنف الألفاظ أو الكلمات ويحيط بمعانيها ودلالاتها، عن طريق شرحها وتفسيرها وبيانها والاستشهاد على ذلك كله بما يجعله واضحا لا لبس فيه.

هذه هي العلاقة التي تفسر- عندنا- مسيرة هذا الانتقال التي أحاطت بكلمة (المعجم) حتى صارت مصطلحا وعلما له أصوله وقواعده ومناهج التأليف فيه والفلسفات التي تحكم صناعته.

وإذا كان الأمر كما بيّنته لك فإن ما قرره الدكتور حسين نصار يصبح محتاجا إلى المراجعة والتوقف أمامه، ولا سيما عندما يقول: "وليس ببعيد أن يطلق (أي معجم) عليها (أي على الكتب التي تجمع الألفاظ وتشرحها) في الوقت السابق نفسه؛ لاشتراكها مع الكتب السابقة في الترتيب على حروف المعجم، فالدلالة الملاحظة في الاسم (الذي هو المعجم) هي الترتيب لا الجمع"[1].

وهذا الرأي فيما ظهر لنا قديم جدا، فقد جاء عندالأمير الصنعاني في رسالته:الوجه في تسمية الطبراني لمعاجمه الثلاثة (ص٢٣) [نشرها عمرو علي عمر،دار النوادر، القاهرة،سنة ١٩٩١م]: "وأما تسمية الثلاثة بالمعاجم فالظاهر أنها كلها مرتبة على حروف المعجم"، وهو ما يدعم ما ذهبنا إليه.

---

(١) المعجم العربي نشأته وتطوره، ١/ ١١.

ولكننا نرى أن الدلالة الملاحظة أو المعنى الجامع في انتقال الاسم، وهو (المعجم) من مؤرخي المحدثين إلى علماء اللغة يكمن في ثلاثة أشياء؛ أولها وأخطرها إنما هو المعنى الذي تحدثنا عنه؛ ذلك أن (المعجم) بعدما صار اسما ومصطلحا إنما خرج من معنى إزالة الغموض والإبهام.

ونحن لا ننفي أهمية وجود عنصر الترتيب الذي أثبته الأستاذ الدكتور حسين نصار، وكشفنا عنه من لدن الصنعاني، أو عنصر الجمع الذي نفاه، لكننا ننفي أن يكون واحدٌ منهما (أي من هذين العنصرين) له أثر منفرد في إطلاق اسم (المعجم) على كتب الألفاظ اللغوية، استعارة له من علماء الرجال أو التاريخ أو الطبقات؛ لأننا- على وجه العموم- وفيما يتعلق بالبدايات الأولى لحركة التأليف المعجمي، لم تكن خاصة لمنطق في الترتيب أو حتى في الجمع، ودونك المحاولة- التي يقال إنها الأولى- في ميدان النشاط المعجمي العربي وهي سؤالات نافع بن الأزرق لابن عباس رضي الله عنه، فهي خالية من أي منهج في الترتيب، ولا نعرف علة لجمع هذه المفردات من دون غيرها من ألفاظ القرآن الكريم- في هذه السؤالات؛ ولا يكفي أن نقول إنها من غرائبه التي أقلقت نافعا زعيم الأزارقة؛ لأننا لا نصدق أن كل هذه المفردات- وفيها سهل يسير متداول- كان قد أصبح غريبا عسير الفهم، يحتاج إلى بيان في هذا الزمان المبكر من زمن الدولة الإسلامية، وهو عصر التابعين الأول القريب جدا من عصر الصحابة، بل التعايش مع عصر الصحابة الأخير.

هذا جانب من القضية. ومن جانب آخر، فقد شاع في بعض الكتابات ما يوحي بتخطئة استعمال (معاجم) جمعا للفظ (المعجم)، وتؤثر جمعها جمع سلامة على (معجمات). وقد كان جاء استخدام الكلمتين جنبا إلى جنب في كتابات جيل الرواد من مفكرينا، ولا سيما من كان من المحافظين منهم، فها هو ذا مصطفي صادق الرافعي يستخدمهما معا عندما يقول في سياق حديثه في فصل واحد عن (تمصير اللغة) من كتابه الرائد: (تحت راية القرآن): "إن الأستاذ (يقصد طه حسين) يرى أخذ أسماء المستحدثات

من معاجم اللغة"[1]. ثم يقول بعدها بقليل: "تتصفح في بعض المعجمات العربية"[2]. ثم يعود في موضع ثالث فيقول: "فرجعت إلى المعاجم"[3].

كما استخدمه الدكتور عبد الله درويش في كتابه (المعاجم العربية)[4]، ثم استخدم اللفظين معا الدكتور حسين نصار في دراسته (المعجم العربي، نشأته وتطوره)[5].

ولعلي أكون موفقا إن قلت إن مسوغ هذا الإيحاء الرافض لاستخدام صيغة جمع (معجم) على (معاجم) والمخطئ له في كتابات بعض المحدثين من أمثال الدكتور إبراهيم السامرائي في كتابه: (مع المصادر العربية في اللغة والأدب) [١٦٥/١]، والدكتور المرحوم إبراهيم بيومي مدكور في كتابه: (في اللغة والأدب) [١٠١]. والدكتور محمود فهمي حجازي في مقالته: (الاتجاهات الحديثة في صناعة المعجمات) [٨٦]- هو ذهاب معظم القدماء إلى الحكم بعدم قياسية هذا الجمع (أي جمع مُفْعَل على مَفاعِل)، واعتبار أن ما جاء من هذا النوع مكسّرا من قبيل الشاذ الذي يحفظ ولا يقاس عليه. واستثنى بعضهم المؤنث من هذا النوع، فأجازوا جمعه على مفاعل، مثل مُرْضع ومراضع، وأجاز قليل منهم قياسية جمع هذا النوع على مفاعل[6].

ومبرر الاستثناء عند المانعين، كما مر بنا- هو أن القرآن الكريم قد استخدم هذا الجمع في قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ [سورة القصص ١٢/٢٨].

ونحن نرى أنه لا يصح أن يكون ثمة مبرر أو مسوّغ لقصر الجواز على الاسم المؤنث دون غيره، حيث إن الواقع اللغوي- مع قلة شواهده- يقف في صف الجواز مطلقا.

---

(١) تحت راية القرآن، ص٤١، وانظر: تراث المعاجم الفقهية، دراسة لغوية، ص٧.

(٢) تحت راية القرآن، ص٤٥. وانظر: تراث المعاجم الفقهية، دراسة لغوية، ص٧.

(٣) تحت راية القرآن، ص٨٢. وانظر: تراث المعاجم الفقهية، دراسة لغوية، ص٧.

(٤) انظر: المعاجم العربية مع اعتناء خاص بمعجم العين، ص/هـ.

(٥) انظر: المعجم العربي نشأته وتطوره ١١/١، س ١٥،١٩.

(٦) جموع التكسير في القرآن الكريم، دراسة تقعيدية، ص٢٤٤. وانظر: كتاب سيبويه ٦٤٢/٣، وما نقله عنه في حالة استثناء المؤنث ابن يعيش في شرح المفصل (١) ٦٧/٥ في استشهادهما بمطافل ومشادن، ويراه ابن عصفور شاذا في المقرب ١٢٦/٢، س١٢.

وبعيدا عن الدخول في تفصيلات كثيرة، ربما لا يكون هذا مكانها، بل الصحيح أنه ليس مكانها- نقرر: أنه إذا غلب استعمال مثل هذا الوصف دون موصوف، "فيصير كأنه اسم، كما في القرآن الكريم مرضع ومراضع، ونرى خارج مستوى القرآن الكريم مثل: معجم ومعاجم، فهذا عندي هو القول الفصل في هذه القضية، فليجمع مضموم الميم من وزن "مُفْعَل" على صيغة "مَفَاعِل"، كما يقول الصديق الكريم الدكتور مفرح سعفان في دراسته: (جمع التكسير في القرآن الكريم، دراسة تقعيدية)[1].

وهذا الذي قلته هنا يشير إلى جواز هذا الجمع على الإطلاق كما رأي المحدثون، وليس بشاذ على وجه الإطلاق كما قرر القدماء من الصرفيين العرب؛ بل الأمر مرهون بتحول هذا الوصف إلى الاسمية، فإذا تحقق فيه هذا الشرط؛ شرط كون الكلمة مستخدمة اسما، جاز جمعه على صيغة مفاعل، وإلا فلا، وقد تحقق كما مر بنا هذا الشرط في كلمة المعجم التي صارت اسما ومصطلحا بعد أن عبرت زمانا قبل ميلادها مصطلحا تستخدم مصدرا أو غيره.

وقد جاء فيما أخرجه مجمع اللغة العربية من معاجم ما يفيد إقراره لهذا الجمع على هذه الصيغة، حيث يقول المعجم الوسيط: "المعجم ديوان لمفردات اللغة... (ج) [أي يجمع على] معجمات ومعاجم"[2]. ولا يؤذيك تقديمه لمعجمات على معاجم في هذا النص، فالواو لمطلق الجمع وإن كانت للترتيب، فما المانع أن تتقدم كلمة معجمات وهي الجمع القياسي. المهم أنه يجوز جمع مُفْعَل هلى مَفَاعِل.

بقى أن نقرر في هذا الختام أن المعجم هو باعتباره مصطلحا: "كتاب يجمع عددا نوعيا من الألفاظ اللغوية هادفا إلى شرحها وتفسيرها وبيان معانيها، مستشهدا على ذلك الشرح بشواهد يحتج بها تؤكد صحة هذا المعنى أو ذاك، ومبينا طريقة هجائها ونطقها، وما تحتاج إليه من معلومات صوتية وصرفية ونحوية ولغوية (دلالية)، ومؤلَّف على طريق القصد،

(١) جموع التكسير في القرآن الكريم، دراسة تقعيدية، ص٢٤٦. وقد كان الدكتور ناصر الدين الأسد كتب مقالا عن هذا الجمع في عدد من أعداد مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

(٢) المعجم الوسيط (عجم)، ٦٠٧/٢.

معتمدا على منهج معين، مبيَّنا الغرض من تأليفه ومن هو المعنيّ باستخدامه، ومطابقا للوظيفة المرجوّة منه ولطبيعة مستخدميه، ومتمتع بطبيعة شبه موسوعية تخدم معاني الألفاظ في النهاية". وهذا التعريف الذي نقترحه لمصطلح المعجم لم نجده عند أحد من القدامى من المعجميين العرب أو الدارسين اللغويين العرب المحدثين.

وقد أصبح لازما- من وجهة نظرنا- أن ينضبط التعريف باعتبار تحرير المصطلح هو الأساس الأول لأية دراسة علمية، ووفق هذا التحرير للمصطلح تتضح مجموعة ضخمة من القضايا المتعلقة بنظيرة المعجم، ربما كانت مثار جدل وأخذ ورد.

وهكذا استقرت هذه الكلمة وصارت مصطلحا على علم كبير له مناهجه وقواعده، وتبين لنا طبيعة الطريق أو الرحلة التي قطعتها حتى وصلت إلينا اليوم.

وهذا الكتاب يفتح الباب أمام تاريخ مهم للمعجمية العربية لم يجد من يعطف عليه من المعاصرين.

***

ثانيا
لولا القرآن ما كانت المعاجم العربية

بات يقينا لا مجال للطعن فيه أو لتسرُّب الرَّيب نحوه- أمرُ أثر القرآن الكريم في قيام العلوم ونهضتها في المحيط الحضاري لأمة العرب؛ تلك الأمة التي تنزّل كتاب الله الكريم بلغتها مُعْجزًا، تحداهم الله به؛ فعجزوا وأعلنوا علو كعبه، ودان خاصتهم وفصحاؤهم بتفرده، وارتفاعه عما عانوا وتعاطوا من فنون القول كلها عندهم، "صدَّق المسلمون (وغيرهم) هذا، وأيقنوا أنه لا شرف إلا والقرآن سبيل إليه، ولا خير إلا وفي آياته دليل عليه، فراحوا يثوّرون القرآن؛ (أي ينقرون عما فيه ويبحثون عن معانيه)؛ ليقفوا على ما فيه...، وأخذوا يتدبرون في آياته ليأخذوا من مضامينها"[1] ما ينفعهم في حياتهم وآخرتهم.

أدرك هذه الحقيقة الخطيرة كل من عالج شيئا من الدراسات العربية واللغوية على وجه التحديد، سواء أكان هذا الدارس عربيا مسلما أو غير مسلم أو كان أعجميا غير عربي وهو الأمر الذي ألمح إليه المستشرق الألماني أوجست فيشر في مقدمة القطعة التي طبعها مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م من معجمه (المعجم اللغوي التاريخي)، عندما أرجع السر وراء النهوض بالدراسات اللغوية في الحضارة العربية والإسلامية إلى تفسير كتاب الله الكريم.

وإذا كان فيشر يلمح إلى ما نقرره هنا حقيقة ساطعة، فإن ابن خلدون يقرر في مقدمته الذائعة الصيت هذا الأمر، ويرسم صورة واضحة لهذه العلاقة بين نشأة المعجم العربي وبداية التأليف فيه، وبين إرادة فهم ألفاظ كتاب الله الكريم، تمهيدا مقبولا ومتوقعا لتفسير النص الكريم كله، وفهم مراميه وأهدافه وأوامره ونواهيه. وما إلى غير ذلك، يقول ابن خلدون: "وأصل هذه العلوم النقلية كلها هي الشرعيات من الكتاب والسنة

(١) التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي، ١/٩، س١٣.

التي هي مشروعة لنا من الله ورسوله، وما يتعلق بذلك من العلوم التي تهيئتها للإفادة، ثم يستتبع ذلك علوم اللسان العربي الذي هو لسان الملة وبه نزل القرآن"[1].

وهذا نص على وجازته قاطع في الدلالة على أن اللسان وعلومه (واللسان اسم آخر للغة) هو الأساس لأي علم شرعي يبغي التعامل مع كتاب الله وسنة نبيه.

وقد انضاف مع مرور الوقت عوامل أخرى، لكنها لم ترق إلى هذا الذي أخبرتك به من أن المعجم العربي وغيره إنما أنشأ لحفظ دلالات ألفاظ كتاب الله والاستشهاد على صحة هذه المعاني من لغة العرب؛ لأنه نزل بلغتهم.

يقول ابن خلدون مرة أخرى عند حديثه عن اللغة: "هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية، وذلك أنه لما فسدت ملكة اللسان العربي في الحركات المسماة عند أهل النحو بالإعراب واستنبطت القوانين لحفظها... ثم استمر ذلك الفساد بملابسة العجم ومخالطتهم، حتى تأدى الفساد إلى موضوعات الألفاظ، فاستُعمِل كثير من كلام العرب في غير موضوعه عندهم؛ ميلا مع هجنة المتعربين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية، فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب (أي الكتابة) والتدوين؛ خشية الدروس (أي الانطماس والبلى)، وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث، فشمر كثير من أئمة اللسان لذلك وأمْلوا فيه الدواوين"[2].

ولا يغرنك ما قدمه ابن خلدون بين يدي حديثه من أمر الخُلْطَة بالأعاجم وفشوّ العجمة من جراء هذه الخلطة؛ فهذه وأمثالها أمور أسهمت ولا شك في تطور العمل المعجمي العربي، لكنها لم تنشيءه بادئا؛ بدليل أن كثيرًا من المحاولات الأولى في ميدان التأليف المعجمي كان دائرا حول الألفاظ القرآنية، فيما عرف اصطلاحا فيما بعد تحت عنوان غريب القرآن[3] من جانب، وأن أولية المعجم العربي بالمعنى العام كانت قبل فشوّ العجمة، وفي أثناء عصر الاحتجاج.

---

(١) مقدمة ابن خلدون، تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي، ١٠٢٦/٣.

(٢) السابق، ١٢٦٨/٣.

(٣) من أقدم المحاولات التي وصلت إلينا في هذا الباب محاولة رويت لنا من أكثر من طريق وهي (سؤالات نافع ابن الأزرق عن ابن عباس)، وهي ولا شك سئلت قبل سنة ٦٥هـ سنة وفاة نافع بن الأزرق، فيما يشبه=

وأحب لك أن تقف مليا عند العلة التي ذكرها ابن خلدون في نهاية النص الذي أوردناه ونقلناه عنه، مفسرا بها نشأة المعاجم اللغوية، وأنها لحماية من يعالج القرآن الكريم ويتعرض له من مغبة سوء الفهم أو الجهل، ومثل ذلك من يعالج السنة ويتعرض لها. وإذا عرفنا أن هذين المصدرين (القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة) هما المصدران الأعليان في قائمة مصادر التشريع التي يستنبط منهما الفقهاء الأحكام التفصيلية، وأنهما يمثلان المرجعية في الفتوى والحكم والسياسة؛ بل يمثلان المرجعية العليا في سائر شيءون الحياة بالنسبة إلى عموم الأمة المسلمة- أقول إذا عرفنا ذلك كله قدرنا قيمة هذه العلة التي ذكرها ابن خلدون، وقدرنا من باب آخر أهمية وجود المعجم العربي في تاريخ الحياة العلمية العربية التي كان محورها القرآن الكريم، وهذا ما يفسر من باب آخر سر تسمية كتاب الله تعالى بكتاب العربية الأول.

ملخص القضية هنا يكمن في أن القرآن الكريم هو الذي استدعى تأليف المعاجم العربية إجمالا وتفصيلا.

أما الإجمال فقد أوضحناه لك، ويوضحه مرة أخرى الدكتور أحمد مختار عمر عندما يقرر أنه: "إذا المعجم العربي- كغيره من سائر فروع الدراسات اللغوية- لم ينشأ إلا بعد ظهور الإسلام وباعتباره ثمرة من ثمار الدرس القرآني، فقد استطاع- منذ ظهوره- أن يشق لنفسه طريقا مستقلا، وأن يحقق من التفوق والتميز ما جعله يُناقش معاجم الشعوب الأخرى"[1].

= الأمالي أو المجالس، ولا شك أنها لم تكن بهذا الشكل المكتمل الذي وصل إلينا، وأنه ربما يكون قد زيد فيها مع مرور الوقت. وقد وصلت إلينا عن طريق الحُتلي، أبي بكر بن جعفر محمد بن مسلم ت٣٦٥هـ، والعلّاف، وأبو طاهر محمد بن علي بن محمد بن يوسف ت٤٤٢هـ.

وقد نشرت أكثر من مرة الأولى سنة ١٩٦٨م في بغداد بتحقيق إبراهيم السامرائي، والثانية ١٩٧١م بدار المعارف بالقاهرة بتحقيق المرحومة الكريمة الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، والثالثة سنة ١٩٩٣م بتحقيق الدكتور محمد أحمد الدالي في بيروت. وقد تضمنت هذه المحاولة المعجمية عددا من الوظائف المهمة من مثل بيان المعنى، واستصحاب السياق اللغوي عند التفسير.

(١) موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة (معاجم اللغة العربية)، ١/٥١٢.

وإن كان لا يعنينا الآن أمر تفوق المعجم العربي إذا ما قورن بمعاجم الشعوب الأخرى، فإنه يعنينا أن نقرر أن استمرار العلم المعجمي حتى الآن، محكوم ببقاء القرآن الكريم، ومحكوم كذلك بطبيعة هذا القرآن الكريم وأنه الكتاب الخاتم الموصوف بأنه غض، ولا يَخْلَق على كثرة الرد، ومحكوم كذلك بطبيعة ما يحققه من تخصصات دقيقة أو تفصيلات أكثر خصوصية من منطق العموم والإجمال الذي تقدم الآن.

وإذا ما أردنا أن نفسر قولنا السابق الذي قررنا فيه أن القرآن الكريم هو السر وراء نشأة المعجم العربي بكل مناهجه وصنوفه وأشكاله، فإنه يمكننا- في اطمئنان بالغ- أن نقول إن كل جزئية من التشريع في الإسلام قام لها من المعاجم العربية ما يسد باب الغموض فيها ومعالجة أمر الغرابة التي تكتنفها وتحيط بها.

خذ مثلا فرض الزكاة ذلك الركن الذي فرضه الإسلام في أواخر زمان النبوة في المدينة، فنحن نرى أن هذا الفرض على وجه التحديد هو المسئول عن نشأة عدد ضخم من المعاجم اللغوية أحادية الموضوع، أو ما تعرف في حركة التأليف المعجمي تحت عنوان (الرسائل اللغوية الصغيرة)، فكتب الإبل والشاء والمعادن، وغيرها مما هذا شبه له ومثال عليه، كان السر الحقيقي وراء تصنيفها هو إيقاف جامع الزكاة أو جابي الخراج أو المُضحّي أو المُزكّي أو العاقّ (الذي يعق عن أولاده) أو المولم- على ما ينبغي فيما يأخذه هذا الجابي أو يخرجه المسلم في مثل هذه الأحوال المختلفة التي يعرض بها في حياته- أن يعرفه من شروط.

كما أنها تفسر من جانب آخر الأسماء التي وردت في الكتاب الكريم والسنة الشريفة التي تدور حول هذه الأمور الشرعية، وهو ما سوف يزداد وضوحا فيما يلي.

وإذا كان معرفة الوقت أمرا لازما في عدد كبير من الشرائع الإسلامية كالصلاة والصيام والحج، فإن التأليف حول الأزمنة يصبح أمرا ضروريا لفهم الألفاظ الزمنية التي تدور في القرآن الكريم والسنة المطهرة حول أسماء الأزمنة التي تحيط بهذه العبادات وغيرها؛ ولذلك وجدنا كثيرا من الرسائل اللغوية الصغيرة تعنى بشرح الألفاظ الخاصة بالمواقيت الزمنية، وهكذا دواليك.

وهذا الذي أخبرتك به من شأن العلاقة العضوية بين نشأة المعجم العربي وكتاب الله الكريم وسنة نبيه- صلى الله عليه وسلم- لم يكن محض استنباط عقلي قاد إليه طبيعة أثر هذين الأصلين في الحياة العلمية والحضارة العربية والإسلامية، وتلمس له الدارسون الأدلة، وإنما كان ظاهرا وواضحا في مقدمات المعاجم العربية ظهورا جليا، اتفق في هذه المعاجم التي اقترب تأليفها من زمان البعثة الكريمة أو ابتعد زمان تأليفها عن زمن النبوة- صلى الله عليه وسلم- وسواء أكان الهدف منها هو خدمة كتاب الله الكريم مباشرة أم كان الهدف من تأليفها هو خدمة كتاب الله الكريم بطريقة غير مباشرة عن طريق خدمة أغراض أخرى جانبية، وسواء أكان المعجم معجما عاما أيا كان منهجه أو المدرسة التي ينتمي إليها أم كان معجما خاصا اصطلاحيا لمجموعة علوم متعددة أو لعلم واحد فقط.

والدليل على أن أمر هذه العلاقة لم يكن مجرد استنباط بل كان ظاهرا في كلام أصحاب المعاجم من المعجميين العرب على اختلاف أنواعها، فمن ذلك ما كتبه أبو منصور الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل المتوفى سنة ٤٢٩هـ في مقدمة معجمه الموضوعي (فقه اللغة وسر العربية) إن: "الإقبال على تفهمها (أي تفهم لغة العرب) من الديانة؛ إذ هي أداة العلم، ومفتاح التفقه في الدين، وسبب إصلاح المعاش والمعاد، ثم هي لإحراز الفضائل والاحتواء على المروءة وسائر أنواع المناقب- كالينبوع للماء والزند للنار. ولو لم يكن في الإحاطة بخصائصها، والوقوف على مجاريها ومصارفها، والتبحر في جلائلها ودقائقها- إلا قوة اليقين في معرفة إعجاز القرآن، وزيادة البصيرة في إثبات النبوة اللذين هما عمدة الإيمان، لكفي بهما فضلا يحسُن أثره، ويطيب في الدارين ثمره، فكيف وأيسر ما خصها الله- عزو وجل- من دروب المدادح، ما يُكِلُّ أقلام الكتبة، ويتعب أنامل الحسبة، ولما شرفها الله- عز اسمه- وعظمها، ورفع خطرها، وكرمها، وأوحى بها إلى خير عقله، وجعلها لسان أمينه على وحيه"[1].

(١) فقه اللغة وسر العربية، للثعالبي، تحقيق الدكتور خالد فهمي، ١/ ٣-٤.

وهذا نص قاطع في الدلالة على ما سبق أن قلناه؛ حيث رصد الثعالبي كما ترى أن تدوين اللغة، والاهتمام بحفظها وحفظ دلالات ألفاظها راجع إلى مجموعة أسباب هي أن حفظ اللغة حدث؛ لأنها:

١- أداة علم.

٢- مفتاح للتفقه في الدين.

٣- سبب في إصلاح المعاش؛ (الحياة)، والمعاد؛ (الآخرة).

٤- هي طريق لإحراز الفضائل والاحتواء على المروءة وسائر أنواع المناقب.

٥- هي طريق قوة اليقين في معرفة إعجاز القرآن.

٦- هي طريق لإثبات النبوة.

هذه ستة عوامل أحب لك أن تقف أمامها طويلا لتدرك طبيعة فهمهم للأهداف التي قام من أجلها، ووجود المعجم العربي في مسيرة التأليف في الحضارة العربية الإسلامية، فالعناصر الستة التي لخصتها لك قريبة بلغة الثعالبي ولفظه- تدور كلها حول الإسلام؛ دينا وشريعة، وفقها، وسياسة، ونظاما اجتماعيا حيويا منظما في تعبيره الذي مر بك، وأن اللغة سببٌ في إصلاح المعاش أو الحياة.

فضلا عن أن اللغة أو حفظ دلالات الألفاظ وهي أهم وظيفة لأي معجم في أي لغة- هي باب أولى وطريق لا بد من السير فيها لإدراك صدق الإعجاز القرآني، واتخاذ ذلك مرقىً لتحقيق النبوة وإثبات علامتها، والتأكيد على دلائلها من باب لغوي، مفتاحه إدراك معاني الكلمات.

أضف إلى ذلك أمرا في غاية الخطورة والأهمية وهو ما عبر عنه الثعالبي في نصه السابق، عندما قرر أن اللغة هي الطريق لإحراز الفضائل والاحتواء على المروءة وسائر أنواع المناقب.

وترجمة هذا الكلام في يسر تلفت أنظارنا إلى شيء خطير جدا يقول إن الألفاظ تحمل داخلها كل المضامين الحضارية السلوكية والعقدية والدينية للأمة صاحبة اللغة، موضوع

الدراسة، بمعنى أن دراسة المعجم أو دراسة الألفاظ باب لازم لدراسة حياة الأمة وحضاراتها ودينها، وهو باب لا يكذب أبدا، ووثائق عالية القيمة وشديدة الأهمية لكل العلوم الأخرى.

وإذا كان الثعالبي قد عبر عن فكرتنا تعبيرا رائعا وهو من أبناء القرنين الرابع والخامس الهجريين (٣٥٠- ٤٢٩هـ) وهو عصر اشتهر بتفوقه وتقدمه وبزوغ نجم العلوم فيه ونضجها وانفتاحها- فإن هذا الوضوح في التعبير عن هذه العلاقة العضوية بين قيام المعجم العربي وخدمة كتاب الله الكريم وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه- لم يغب مع تقدم الزمن، وسيره نحو عصرنا، وابتعاده عن زمن النبوة الكريمة، فها هو ذا الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي المتوفى ٨١٧هـ، يؤكد هذه الحقيقة في مقدمة معجمه الشهير: (القاموس المحيط) فيقول: "إن بيان الشريعة- لما كان مصدره عن لسان العرب (أي لغتهم)، وكان العمل بموجبه لا يصح إلا بإحكام العلم بمقدمته- وجب على رُوَّام العلم، وطلاب الأثر أن يجعلوا عظم اجتهادهم واعتمادهم، وأن يصرفوا جُلَّ عنايتهم في ارتيادهم- إلى علم اللغة والمعرفة بوجوهها، والوقوف على مُثُلها ورسومها. وقد عُني به من الخلف والسلف، في كل عصر- عصابة، هم أهل الإصابة، أحرزوا دقائقه، وأبرزوا حقائقه"[1].

ولم تتغير الحقيقة المجملة التي حدثتك عنها، وإن تغيرت اللغة المعبّرة عن هذه الحقيقة في لفظ الفيروزآبادي، الذي قرر أن علم اللغة، وهو هنا المعجم الحافظ لدلالات الألفاظ هو المسئول الأول وقبل أي علم آخر عن بيان حقائق الشريعة كلها، وأنه إذا كان يتفرع عن كل أصل أفنان وفنون، فإن "علم اللغة هو الكافل بإبراز أسرار الجميع"[2]. على حد تعبير الفيروزآبادي في مقدمة معجمه القاموس المحيط.

وإذا كنا نقلنا ما يؤيد حقيقة العلاقة العضوية بين نشأة المعجم العربي وخدمة كتاب الله الكريم وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم- من معجميين ينتميان إلى مدرستين مختلفتين

(١) القاموس المحيط (المقدمة)، ٢/١.
(٢) السابق، ٢/١.

هي المدرسة الموضوعية والمدرسة الهجائية السجعية أو (مدرسة الصحاح)، وجئنا بهما من عصرين ومكانين متباعدين لنؤكد حقيقة استمرار الفكرة وتغطيتها للأمة كلها زمانا ومكانا، أو تاريخا وجغرافيا.

وبقي أن أؤكد هذه الحقيقة في الباب الآخر وهو الرسائل الصغيرة، الذي سميناه الجانب التفصيلي، وأمامي نموذج دال على ما نحن فيه أو بصدده وهو كتاب الأنواء والأزمنة ومعرفة أعيان الكواكب في النجوم، لأبي عبد الله بن حسين بن عاصم الثقفي المتوفى سنة ٤٠٣هـ، وهو يشرح الألفاظ المتعلقة بالأزمنة وفصولها عن مذاهب العرب، ومذاهب أهل الحساب (الفلك)، ما سمّوا به كل فصل منها، وحدوا لوقت دخوله، ووقت خروجه... وذكرت كل شهر من الشهور المذكورة بباب أفردته له، بما تطلع فيه المنازل وما تقطعه الشمس منها، والوقت الذي تحل به فيها، والوقت الذي ترحل فيه عنها..."[1] إلخ.

وقد كان الثقفي كغيره من أصحاب الرسائل اللغوية، مدركين للهدف الذي من أجله كتبوا ما كتبوا، وهو خدمة الكتاب الكريم في باب من الأبواب، أو خدمة جزء بعينه من أبواب الشرع الحنيف، ولم يغب هذا الغرض عن مقدمات رسائلهم اللغوية التي ألفوها. وهذا الكتاب مثال واحد يؤيد ما ذهبنا إليه، يقول الثقفي في بيان غرضه من معجمه هذا: "وحكيت بعد ذلك ما جاء في المجرّة، والفجرين، والشفقين، والزوال، ورسم القبلة بالأندلس والمشارق والمغارب، والرياح وما بها، وأسمائها، وخواصها، والسحاب وعلاماتها وعلامات الحمرة فيها، وفي السماء دونها، في قوله لنبيه عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ [سورة المزمل ٢٠/٧٣]، ومعرفة أوقات السحور في جميع أوقات السنة..."[2].

وهذا نص نفيس؛ لأنه واضح في تقرير حقيقة أن القرآن إجمالا وتفصيلا كان هو المحور الذي دارت حوله كل الجهود المعجمية العربية على وجه التحديد، فالرجل في هذا النص يوضح عناية اللغويين الفائقة في ضبط الألفاظ المتعلقة بكل جزئيات الزمن؛ يوما

(١) الأنواء والأزمنة للثقفي، ص١٩.
(٢) السابق، ص٢٠.

وليلة؛ أو شهرا وسنة؛ وأن ذلك حاسم في بيان كثير من شروط العبادات (فروضا ونوافل)، من مثل: الصلاة، وما يحيط بها من تحديد القبلة، وتحديد الفجرين؛ الكاذب الذي لا تصح صلاة معه، ولا يبدأ صيام له، والفجر الصادق الذي تحل له الصلاة ويبدأ معه الصيام، والشفقين وما يحيط بتحديدهما من بيان لدخول المغرب ولدخول العشاء ولوقت انتهاء إباحة صلاتها، ومن مثل تحديد أوقات التهجد، وأوقات الدعاء المندوب، أو أوقات تناول السحور، وهي كلها لا تتم كثير من العبادات دونها، مما يؤكد ما ذهبنا إليه من أن القرآن الكريم هو قطب الرحى في هذا المجال.

وأحب لك أن تعلم أن قولنا (لولا القرآن ما كانت المعاجم العربية)[1] صحيح جملة وتفصيلا، وصحيح تطورا ورقيا بالمعاجم، وصحيح من باب آخر لا مجاز فيه وهو أن القرآن هو الذي أوجد المعاجم العربية وبعثها ابتعاثا من عدم، فتاريخ العربية القديم قبل الإسلام نعلم منه قرنين، فيما يسمى اصطلاحا بالجاهلية، لكننا لم نجد لا معجما ولا بدايات لمعجم أو قوائم لمفردات هذا التاريخ القديم بحيث لا يمكننا أن نقول مثلا إن القرآن تطور بالمعجم؛ لأنه لم يكن ثمة معجم أصلا قبل نزول القرآن الكريم.

القرآن إذًا هو الغرض الذي من أجله جاء المعجم، وأُلِّف، مع اعترافنا في الوقت نفسه بأن هناك أهدافا أخرى عملية فرضها الواقع العملي والعلمي للحياة في المجتمعات الإسلامية مع مرور الزمن؛ لكنها لم تكن بمعزل عن الهدف الأسمى والأساسي والأول، وهو خدمة القرآن الكريم والسنة الشريفة، يستوي في هذا كل المعاجم العربية، كبيرة كاملة كانت أو صغيرة مختصرة.

---

(١) هذا عنوان مقتبس من مبحث للدكتور رمضان عبد التواب في كتابه (فصول في فقه العربية) ص١٨٠، وإن كان هناك مجاز يحيط بدلالة هذا التعبير هناك، أو يحتاج إلى توقيف لفهم المقصود من ورائه، وأنه لولا القرآن لماتت الفصحى واندثرت، فإننا عندنا وفي مقامنا هذا نقصد به المعنى الحقيقي، وهو أنه لولا القرآن الكريم لما وجدت المعاجم العربية، أي أن القرآن الكريم هو الذي أنشأ المعاجم، واستدعى وجودها استدعاء. ولذلك فنحن نؤكد ما قلناه في المتن سابقا من أن نشأة الدراسات العربية بفروعها المختلفة متعلقة بالقرآن الكريم كتاب الله العزيز، فكان القرآن هو المحور الذي دارت حوله تلك الدراسات المختلفة، سواء منها تلك الدراسات التي تتعلق تعلقا مباشرا بتفسير القرآن، وتوضيح آياته، وتبيين معناه، واستنباط أحكام الشريعة منه، أو تلك التي تخدم هذه الأغراض جميعها، فالبحث في دلالة اللفظ، واشتقاق الصيغ، وهو ما يندرج تحت عمل المعجمي الذي يروم صناعة معجم ما من المعاجم.